﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البقرة: 90].

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ختمَ اللهُ الآيةَ السَّابقةَ بلعنةِ اللهِ على الكافرينَ التي تُفيدُ نهايةَ الذَّمِّ لَهُم، وَصلَ بِهِ قولَه تعالى ﴿بِئۡسَمَا﴾، فأَتَى بالكلمَةِ الجَامعةِ للمذامّ كلِّها، مُبيّنًا عِلَّةَ كفرِهم، وسَبَبَ ما استَحَقُّوه بهذا الذّمِّ، وهوَ شِراؤُهُم أنفسَهم بالكفرِ، بَغيًا وَحَسَدًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ من فضلِه على رَسولٍ لَيسَ مِنْ قَومِهم، وأنْ يَرَوا كِتابًا مُصَدِّقًا لِكتابهم[1]، وقدْ تكونُ المناسبةُ استئنافًا لذمِّهم وتَسفيهًا لِعقولِهم؛ إذْ كَفروا بالقرآنِ وَبِرسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ، بغيًا وحسدًا أنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضلِهِ على رَسولٍ اصطفاهُ من العَربِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِئۡسَمَا﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ: البُؤْس، ويدورُ على معنى: الشِّدَّة، والكلمةُ مَنْقُولةٌ مِنْ: بَئِسَ فُلَانٌ؛ إذا أَصابَ بُؤْسًا، فتكونُ بمعنى: شِدَّةِ الحربِ وشِدَّةِ العذابِ، والبُؤْسُ: شِدَّةُ العَيشِ، ولا بأسَ عليكَ؛ بمعنى: لا شِدَّةَ عليك، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ؛ أَي: لَا خَوْفَ، و(بِئْسَ) كلمةٌ تُستعملُ في جميعِ المَذَامّ مُستوفيةً لَها، وتتَّصلُ بها (ما)، فإذا قلتَ: بِئْسَما كانَ يفعلُ زيدٌ، فَكأنَّكَ قُلتَ: استحقَّ زيدٌ الذَّمَّ الّذي يكونُ في سائرِ جنسِه[3].

2) ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾: يَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وَإِعْطَاءً، ولفظُ البيعِ والشِّراءِ يُستعملُ كلُّ واحدٍ منهما في مَوضعِ الآخَرِ، وذهبَ أكثرُ المُفسِّرينَ إلى أَنَّ (اشْتَرَوا) في الآيةِ بمعنى: بَاعُوا، وذهبَ بعضُهم إلى أَنَّهُ على أَصلِه بمعنى الشِّراء[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 2/43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/603.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/133.
(4) الرازي، التّفسير الكبير: 3/601، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/489.

3) ﴿بَغْيًا﴾: البَغْيُ يدور على معنيين؛ أَحدهما: طَلَبُ الشَّيْءِ، وَالثَّاني: جِنْسٌ مِنَ الفَسَادِ. فَمِنَ الأَوَّلِ بَغَيْتُ الشَّيْءَ أَبْغِيهِ: إِذَا طَلَبْتَهُ، وما ينبغي كذا؛ أي: ليس بصوابٍ طَلَبُهُ. ومن الثاني قَوْلُهُمْ: بَغَى الجُرْحُ: إِذَا تَرَامَى إِلَى فَسَادٍ، وَالبَغْيُ: الظُّلْمُ، ويكونُ مذمومًا إذا تجاوزَ الحَقَّ إلى الباطلِ -بمعنى المُعاملةِ بغيرِ حَقٍّ-، وَهُوَ المَقصودُ في الآيةِ، أو تَجاوزه إلى الشّبهِ؛ فالبغي في أكثرِ المَواضعِ مذموم[1]، وذهب أكثرُ المفسّرينَ إلى أنَّ ﴿بَغْيًا﴾ في الآيةِ بمعنى: (حسدًا)[2]، والحَسَدُ طَلَبُ ما ليسَ للحاسدِ، فيكونُ مِنَ البغي بمعنى الطَّلَبِ، أَو هو نوعٌ من الظُّلْمِ للمَحسودِ، فيكونُ مِنَ البغي بِمعنى: الظُّلْمِ.

4) ﴿فَبَآءُو﴾: أصله (بَوَأَ)، قُلِبَت الواوُ ألفًا لِتحرُّكِها وانفتاحِ ماقبلَها، فيُقالُ: باءَ يَبُوءُ بَوْءاً، ويدلُّ أصلُ باءَ على معنيين؛ أَحدهمَا: الرُّجُوعُ إِلَى الشَّيْءِ، ومنه: باءَ إلى الشَّيءِ: رجعَ إليه، ومنه: بَوّأْتُه مَنزلًا، بمعنى: أَنزلتُه، والمَعنَى الثاني لِـ(باءَ) يدلُّ على تَسَاوِي الشَّيْئَيْنِ وتَكافئهما، فيقالُ: فلانٌ بَواءٌ لِفلانٍ؛ إذا سَاواه، و(باؤوا) في الآية بمعنى: رَجَعُوا بِغَضَبِ اللّهِ، أو بمعنى: حَلُّوا مُبَوَّءًا مُكافِئًا لَهم ومعهم غَضَبُ اللّهِ؛ أي: عقوبتُه[3]، وكلمةُ (باؤوا) أَكثرُ ما تُقالُ في الاستعمالِ الشَّائعِ في الشَّرِّ[4].

5) ﴿بِغَضَبٍ﴾: الغين والضَّاد والباء تدور اشتقاقاتُها على معنى الشدَّةِ والقوّة، ومِنْهُ سُمِّيت الصَّخرةُ الصّلبةُ بالغَضْبَةِ[5]، ومِنْهُ الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدّةِ الغاضبِ وقوَّتِه، والغضب هو السخط؛ ضد الرضا[6].

وغضبُ اللّهِ تعالى المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلَالِ اللّه وعظَمَتِه، المتضمن سخطه عليهم وعدم رضاه عنهم.

6) ﴿مُّهِينٌ﴾: أَصلُهُ: (هَانَ) يَهونُ هَوْنًا، ويدورُ على مَعنَيَين مُتضادّين بِحسَبِ سياقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بغي).
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/173، وابن جرير، جامع البيان: 2/342.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بَوَأ).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/28.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).

المَدحِ أو الذَّمِّ: فيكونُ مَدحًا بمعنى: السَّكينَةِ وَالوَقارِ، ويكونَ ذَمًّا بمعنى: هَوَانِ الشَّيْءِ الحَقيرِ الهيِّنِ الَّذي لَا كَرامةَ لَهُ، ومنه: أهنتُ فُلانًا وتهاوَنتُ بِهِ واستهنتُ بِهِ، "والعربُ إذا أرادتْ بـ(الهُون) معنى الهَوانِ ضَمَّت(الهاءَ)، وإذا أرادتْ به الرِّفقَ والدَّعَةَ وخِفَّةَ المَؤونةِ فَتَحت(الهاءَ)، فقالوا: هو قليلُ هَوْنِ المَؤونَةِ"[1]، وكلمةُ (مَهين) لمْ تُستعملْ في الكلامِ إلَّا في الذَّمِّ بمعنى الإهانةِ، ويوصفُ بها مَنْ نُزِعَتْ منهُ الكرامةُ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذَمَّ اللَّهُ تعالى اليهودَ بكلمةٍ تَجمعُ كُلَّ أَنواعِ الذَّمِّ وَمُوجباتِه، فَبِئْسَ الشَّيءُ الذي باعَ به اليهودُ أنفسَهم ليختارُوا الكفرَ على الإيمانِ، وكفرُهم ليس عنْ جهلٍ باللهِ وبرسلِه وبرسولِه، بلْ هو عن ظُلْمٍ وَحَسَدٍ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ الوحيَ مِنْ فضلِهِ على مَنْ يختارُه ويَصطفيه مِنْ عبادِه الذين هُمْ أَهلٌ لِحَملِ أَعباءِ الرسالةِ؛ فاليَهودُ كَفَرُوا حَسَدًا عَلَى خُرُوجِ النُّبُوّةِ مِنْهُمْ إِلى العَرَبِ، واختيارُ الرَّسولِ هو بمشيئةِ اللهِ؛ فهو الذي يَعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ، وليسَ الأمرُ برغباتِهم وتَمنِّياتِهم، فخابَ هؤلاءِ القومُ، ورجَعُوا مستحقّين غَضبًا منَ اللهِ على غَضَبٍ؛ لِتكثُّرِ أَفعالِهم القبيحةِ: مِنْ نَقْضِ الميثاقِ، وتحريفِهم كلامَ اللهِ، واتِّخاذِهِمُ العِجلَ، وقولِهم: لنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّامًا مَعدودةً، وغيرِها منَ الأَفعالِ والأقوالِ الشَّنيعةِ. أو يكونُ المعنى: استحَقُّوا غَضَبَين: غضبَ الكُفرِ بالنَّبيِّ ﷺ عندَ بعثتِه، فوقَ الغَضَبِ الذي استحقُّوه مِنْ قَبْلُ بِإِعْنَاتِ موسى عليه السلام والكُفرِ بِهِ، أَو بِكُفرِهم بعيسى بنِ مريمَ -عليه السلام-، وللجاحدين نبوَّةَ محمد ﷺ عذابٌ يذلُّهم ويخزيهم يومَ القيامةِ[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ (بئسَ) مع (ما):

لمْ يَرِدْ في القُرآنِ استعمالُ (مَا) بعدَ الفعلِ (بِئْسَ) إلَّا في سِياقِ ذَمِّ بني إسرائيل[4]؛

(1) القرطبي، جامع البيان: 11/541.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (هان).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 1/167.
(4) كما في الآية 93، والآية 102، من سورة البقرة، والآية 187، من سورة آل عمران، والآية 62، و63، و79، و80، من سورة المائدة، والآية 150، من سورة الأعراف.

خُـصـوصِـيَّـةُ اسـتـعـمـالِ تَركيب (بِئْسَمَا) في سِـيـاقِ الحَديثِ عن بَني إسرائيل

فتركيبُ (بِئْسَ ما) يَجمعُ بينَ طَرفَي الإجمالِ والتَّفصيلِ، وفيهِ تقريرُ الذَّمِّ بأَعَمِّ كلماتِ العمومِ (ما)، فيستَوعبُ كلَّ خَصْلَةٍ من خِصالِ الذَّمِّ الّتي تدلّ عليه بِئْسَ؛ فيكونُ المذمومُ مَذكورًا طَيًّا في العمومِ، ثمَّ يُذكرُ مرَّةً أخرى بذكرِ المَخصوصِ بالذَّمِّ؛ فَكأنَّه ذَمَّهم مَرتين: إحداهُما بدخولِهم في عمومِ (بِئْسَمَا)، والثَّانيةُ بذكرِ مَخصوصِ الذَّمِّ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ﴾؛ فبالغ في ذمِّهم غايةَ الذّمّ، وفي هذا التّركيبِ مِنْ براعةِ الكلامِ وسِحرِ البلاغةِ الأمرُ العَجيبُ؛ إذ أَطنبَ من جهةٍ، وأَوجزَ من جهَةٍ، فتقديرُ الكلامِ: (بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ هُوَ أَنْ يَكْفُرُوا)، فحَذَفَ المبتدأَ (هو) إيجازًا وفَصّلَ في المخصوصِ بالذَّمِّ؛ إذْ ذَكَرَهُ إجمالًا ثمَّ تفصيلًا، فاجتمعَ الإطنابُ والإيجازُ في تركيبٍ واحدٍ، فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ العَربيَّةَ لِسَانَ القرآنِ الكريمِ وَمَنَاطَ إعْجازِهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾:

بَيانُ قُبحِ مَنْ بَاعَ نفسَه، وَرَضِيَ لَهَا الخَسَارةَ عن عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ

وُضِعَت الأنفسُ موضِعَ الإيمانِ؛ فالأنفسُ هي المُثْمَنُ والكفرُ هو الثَّمن؛ وَذلك بحملِ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ على معنى باعوا[1]؛ فشبّه الإيمانَ بالنَّفسِ بجامعِ وُجُوبِ الحِرْصِ عليه، كما أنَّ الإنسانَ حَريصٌ على نفسِه بفطرتِه وغريزتِه، ثمَّ حَذَفَ المُشبَّه وذكرَ المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وَجعلَ استبدالَ الإيمانِ بالكفرِ بمنزلةِ البَيعِ والشِّراءِ؛ ليكونَ مَجازًا مُرسَلًا، بذكرِ معنى البيعِ بلفظِ الاشتراءِ، وَإرادةِ الاستبدالِ الذي هو اللَّازمُ الأوَّلُ للبيعِ والشِّراءِ؛ فباعُوا أنفسَهم بالكفرِ؛ أي: إنَّهم استبْدَلُوا الكفرَ بالإيمانِ؛ فَبَذَلوا أَنفسَهم، وزهِدُوا فيها مِنْ أجلِ تَحصيلِ الكفرِ بالكتابِ المُنَزَّلِ مِنْ عندِ اللهِ وَهوَ القرآنُ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/340، والزمخشري، الكشاف: 1/165، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/178، والآلوسي، روح المعاني: 1/321.

ويُحتملُ أنّه أرادَ مِنَ البيعِ لازمَه الثّاني، وهو الزُّهدُ في المُباعِ والحرصُ على المُشترى؛ فكأنَّهم زَهِدُوا في أنفسِهم وحَرِصُوا على الكفر، والعقلُ والفِطرةُ يَمنعَانِ مِثلَ هذا الاستبدالِ لِحرصِ الإنسانِ على نفسِه وحبِّه لَهَا، فَكيفَ يَبيعُها؟! ووضَع الأنفسَ موضِعَ الإيمانِ لِيُؤذِنَ بِأنَّ الإيمانَ بِمنزلةِ الأنفسِ مَعَزّةً وحِرصًا عليه؛ فكأنَّهم باعُوا الإيمانَ الذي هو بِمَنزلةِ الأنفسِ لِتحصيلِ الثَّمنِ البَخْسِ وهو الكفرُ بالقرآن، ومَنْ باعَ إيمانَه فقدْ باعَ نفسَه، ومَنْ باعَ نفسَه فَقَدَها، وذهب الطّيبيُّ إلى أَنَّ سببَ وضعِ الأنفسِ مَوضِعَ الإيمانِ هو الإيذانُ بـ"أنَّ الأنفسَ إنَّما خُلِقَتْ للعلمِ والعَمَلِ به المُعَبَّر عنه بالإيمانِ، فلَمَّا بدَّلوا الإيمانَ بالكفرِ فَكأنَّهم بَدَّلُوا الأنفسَ به"[1]، وتتجلّى بلاغةُ هذهِ الاستعارةِ وجمالُها في كونِها لم تكنْ مألوفةً في الكلامِ العربيِّ البليغِ؛ فهي مِنْ غَرائِبِ الاستعاراتِ وفرائِدِها.

مجيءُ صيغةِ الفعلِ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ:

التَّنبيه على إضمارِ الكفرِ في النَّفسِ وأنَّه عملٌ مُستقِرٌّ فيها

الأصلُ في الفعلِ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ أَنْ يكونَ مُوافقًا في صِيغتِه للفعلِ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾؛ لأنَّه صفةُ المبيَّن (ما)، والصِّفةُ قيدٌ للمَوصوفِ، فوردَ على خلافِ الظَّاهرِ؛ "للدّلالة عَلَى أَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِالكُفْرِ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الآيَةِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ اشْتِرَاءَ أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ عَمَلٌ اسْتَقَرَّ وَمَضَى، ثُمَّ لَمَّا أُرِيدَ بَيَانُ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ نُبِّهَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَكْفُرُونَ، وَيُعْلَمُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا فِيمَا مَضَى أَيْضًا إِذْ كَانَ الْمُبَيَّنُ بِأَنْ يَكْفُرُوا مُعَبَّرًا عَنْهُ بِالماضي بقوله: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا"[2]. كَمَا دلّتْ (أَنْ) المَصدريَّةُ الدَّالّةُ على المستقبلِ على أَنّهُم كانوا مُصِرّينَ على الكُفْرِ، مُضْمِرينَ لَهُ قبلَ نزولِ القرآنِ إذا لَمْ يَكنْ اختيارُ الرَّسولِ على وفقِ أَهوائِهِمْ.

سِرُّ ذكرِ الكفرِ بالمُنْزَلِ لا الكفرِ بالقُرآنِ:

الإيذانُ بقُبحِ كُفرِهم، والإشارةُ إلى كفرِهم بالتَّوراةِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقلْ: بالقرآنِ؛ للإيذانِ بقُبحِ كفرِهم وجُرأتِهم على اللهِ؛ فَهُم يَكفرونَ بِمَا

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 2/576.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/605.

أَنزلَ اللهُ، وللإشارةِ إلى عُلُوّ شَأنِ القرآنِ وتقريرِ أَنَّهم يَعلمونَ أَنَّه مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّ صِلَةَ الموصولِ مَعلومةٌ للمُخاطَبِ، فيكونُ التَّعبيرُ مُمَهِّدًا لِأَنْ يكونَ كفرُهم حَسَدًا على أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ الوَحيَ على رَسولِه المُصطفى مُحَمّدٍ ﷺ؛ فلا يكونُ كُفرُهم جَهْلًا بِمَا أَنزَلَ اللهُ؛ وللإشارةِ إلى أَنَّ كفرَهم هُو بِكلِّ ما أَنزلَ اللهُ ومِنهُ التَّوراةُ؛ فإنَّ مَنْ يَكفرُ بِكتابٍ مُنزَلٍ، يكفرُ بِمَا سِواهُ؛ إذِ العبرةُ في المُنَزِّلِ سُبْحانَهُ، لا بِالنَّازلِ فَحَسبُ.

تنوُّعُ معاني الإعرابِ:

اختلفَ المُفسِّرون في إعرابِ كلمةِ ﴿بَغْيًا﴾ على ثلاثةِ أَعاريبَ: الأوَّل: مفعولٌ لأجلِه، وهو مُستوفٍ لشروطِ النَّصبِ، الثَّاني: مفعولٌ مُطلقٌ، بجعلِه منصوبًا على المصدرِ بتقديرِ: بَغَوا بغيًا، الثَّالث: حالٌ بتقديرِ: أَنْ يكفروا بَاغِين، والأوجهُ الثَّلاثةُ مُعتَبَرَةٌ، ولَها وجهٌ مِنَ القَبولِ؛ أمَّا الأوَّلُ: فمعناه أَنَّ كفرَهم ما كانَ لِشَيءٍ بقدْرِ ما كان للبَغْيِ، وأمَّا الثَّاني: فمعناه أَنَّهم في كفرِهم بغَوْا بغيًا، وأمَّا الثَّالث: فمعناه أَنَّهم كفروا حالَ كونِهم باغين، وهذا مِنْ بَديعِ استجماعِ معاني النَّحوِ في توجيهِ الأعاريبِ القرآنيَّةِ.

ائتلافُ مَعاني النَّحوِ في دلالة السِّياق من بَديعِ النَّظمِ القرآنيّ

سِرُّ التَّعبيرِ بالبَغي دون الحَسَدِ:

ظاهرُ السِّياقِ أَنَّ اليهودَ حَسَدُوا العَربَ أَنْ جَعَلَ اللهُ النُّبوَّةَ فيهم، لكنَّ السِّياقَ لم يُصرِّحْ بالحَسدِ، بلْ أَتى بمفردةِ البغيِ؛ ذلك أَنَّ البَغيَ هُو تَجاوزُ الحَدِّ في الأمرِ كلِّه[1]، فدلَّ البغيُ على الحَسَدِ تَضمُّنًا، فجمعتْ هذهِ المفردةُ مَعنى التَّجاوزِ، وجمعَ السِّياقُ معنى الحَسَدِ، فاجْتَمَعَا في كونِ هذا البغيِ ناشئًا عن الحَسَدِ مِنْ كَوامِنِ أَنفسِهم، فيكونُ قدْ وَصفَهم بالوَصفِ الأعمِّ وَهو البغيُ، دونَ الأَخَصِّ وَهو الحَسَدُ، زِيادةً في ذَمِّهم.

الجمعُ بين دلالة المفردَةِ ودلالة السِّياقِ، زيادةً في البيانِ والإيضاحِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 136.

نُكتةُ إيثارِ صيغةِ التَّفعيل:

تَـجـدُّدُ البـغـيِ بتجدُّدِ النُّزولِ

آثرَ النَّظمُ صيغةَ التفعيلِ؛ للإيذان بتجدُّدِ بَغْيِهم حسَب تجدُّدِ الإنزالِ وتكثُّره حَسَب تكثره[1]؛ فكلّما نزلت آياتٌ مِنَ القرآنِ على رَسولِ اللهِ مُحَمّدٍ ﷺ تَجدّدَ بَغيُهم وتَكَثَّرَ.

مَعنَى الإضافةِ في قولِهِ ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

تَشريفُ العبادِ بإضافتِهم إلى ضَـمـيرِ لـفـظِ الجَلالةِ

التَّصريحُ بأنَّ الرُّسُلَ الذين يُنَزِّلُ اللهُ عليهم الكتبَ هُمْ مِنْ خَواصِّ عِبادِه؛ فالإضافةُ تفيدُ الاختصاصَ الذي يقتضي تَشريفَ الرُّسلِ؛ بإضافتِهم إلى اللهِ تعالى، فَهو سَبحانَه الذي يُدافعُ عنْهمْ وَهو وَليُّهم في الدُّنيا والآخرةِ.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

للفاءِ احتمالانِ مِنَ المعاني، هما:

الأوَّل: التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، وهو على أَصلِ معناها عندَ مجيئِها عاطفةً بينَ الجُملِ؛ فدلَّ على أَنَّهم مُستحقُّونَ لِتوالي الغَضَبِ، ودلَّ الحكمُ عليهمْ وهو قولُه: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ على أنَّه مُترتّبٌ على ما وُصِفُوا بهِ مِنْ بيعِهم أَنفُسَهم بالكفرِ حَسَدًا على أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ جبريلَ بالقرآنِ على رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ، قال الطِّيبيُّ: "دلَّ على كونِهم أَحِقَّاءَ به تَرَتُّبُ الحُكمِ على الوصفِ بالفاءِ"[2].

الثَّاني: أَنْ تكونَ فَصيحةً؛ بمعنى أنّها أفصحتْ عنْ جَوابِ شرطٍ محذوفٍ، تقديرُه: إذا عرفتَ بَغيَهم الشّنيعَ، وحسَدَهم الفَظيعَ، وأردتَ مَعْرِفةَ جَزائِهم؛ فقد باؤُوا بغَضَبٍ على غَضَبٍ[3].

بيانُ المُفردةِ للمعاني المُتنوِّعَةِ:

تـكـامُـلُ معاني المـفـردةِ سياقًا ودلالـــــةً، في تحقُّقِ الخَيْبةِ واقعًا واستقرارًا

تدُلُّ مفرَدَةُ (البَوْءِ) على خَيْبَةِ اليهودِ في اختيارِهم الكفرَ؛ وذلك إذا حملنَا البَوْءَ على معنى الرُّجوعِ؛ فيكونُ المَعنَى: فرجَعُوا بغَضَبٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/129.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/578.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 2/97.

على غَضَبٍ بعدَ أنْ ظَنُّوا الفوزَ والفلاحَ ببَيعِهم؛ ليدلَّ على خيبتِهم في عملِهم.

وإذا حَملْنا البَوءَ على مَعنَى المُكافِئ؛ فالمراد: فَحَلّوا مَنزِلًا مُكافئًا لهم، ولكنَّه مُلْتَبِسٌ بحالِ غضَبِ اللّهِ؛ أي: المَنْزِلُ الذي يَتَبَوَّؤونَ معهُ غضَبَ اللّهِ! فكيفَ غيرُه مِنَ المَنازل؟! فيكونُ استعارةً تَهَكُّميَّةً [1] على حدّ ما ذكر في قوله: ﴿فَبَشِّرهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]، والاستعارةُ التَّهكميَّةُ تتضمّنُ احتجاجًا للتّأثير في المتلقِّي؛ ليقارِنَ بين الصّواب والخطأ؛ فيرجعَ إلى نَفسِهِ ويُذعِنَ إلى الحقِّ؛ فيفعلَ الصَّوابَ ويتركَ الخَطأَ.

والمعنيانِ مقبولانِ سِياقًا ودلالة؛ فالخَيْبةُ واقعةٌ، وهُم باؤُوا بمكانِ غَضَبٍ، سواءً على الحقيقةِ أو على التَّهكم؛ فخابَتْ أعمالُهم على خِلافِ مُرادِهم؛ فاستقرُّوا فيه.

فائدةُ التَّنكيرِ في كَلِمَةِ الغَضَبِ:

تعظيمُ الغَضَبِ والتَّشديدُ على من وَقَعَ عَليهِ

الدّلالة على تَعظيمِه، وأنَّ الغَضَبَ الثّاني غيرُ الأول[2]؛ فلا يكونُ غَضَبُهُ على مَنْ كَفَرَ بسَببِ أمرٍ واحدٍ؛ كغَضَبِه على مَنْ تنوّعَ كفرُه وتكثّرَ؛ ليدلَّ على تَشْديدِ الحَالِ عَلَيْهِمْ[3]، أو هما شيءٌ واحدٌ، ذُكرا للتَّشديدِ، كما يُقال: ضَلالٌ على ضَلالٍ، أو خَيْبَةٌ على خَيْبَةٍ، وهكذا مِمَّا قُصِدَ به التَّكثُّرُ والمُضاعَفَةُ والاجتماعُ؛ لأجلِ أفعالٍ مُتَواليةٍ صَدَرَتْ عنهم؛ فتعدَّدَ الجزاءُ وتوالى بتَعَدُّدِ أعمالِهم القبيحةِ وتَواليها.

دلالة حرفِ الاستعلاء في قولِهِ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

شِـدَّةُ الـغَـضَـبِ واجـتـمـاعُـه، وعدمُ الفُتورِ بين الغَضَبَيْنِ

اختارَ النَّظم القرآنيُّ حَرفَ الاستعلاءِ دونَ ظرفِ البعديَّةِ، فقال: ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، ولم يقلْ: بعدَ غَضَبٍ، إشعارًا بشدَّتِه؛ فإنَّه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 159.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/369.
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/602، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/491.

مُجْتَمِعٌ مُتَراكِمٌ بعضُه على بَعضٍ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: 35]، ولو قال: بَعْدَ غَضَبٍ؛ لفُهِمَ التَّراخي بين الغَضَبَيْن، وطُروُّ الفُتور.

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

إفـادةُ وقـوعِ الـعَـذابِ على كُـلِّ من كَـفَـرَ، والإشعارُ بعلَّةِ التَّعذيبِ

جَاءَ النَّظمُ بلفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مُظْهَرًا في مَوْضعِ المضمَرِ؛ فلمْ يقُلْ: ولهمْ عذابٌ مهينٌ، وذلك لأَمرين: أحدُهما: إفادَةُ العُموم في الكافرين؛ بسببِ دُخول (ال) المفيدةِ للعُموم؛ أي: إنَّ العذابَ المُهينَ سَيَكونُ لكلّ مَن اتَّصفَ بالكُفْرِ، وهذا "مبالغةٌ في إسنادِ العذابِ على كلِّ من اتَّصفَ بالكفرِ بالإطلاق"[2]، ثانيهما: الإشْعَارُ بِعِلَّةِ كَوْنِ العَذَابِ المُهِينِ لَهُمْ[3]؛ فَهُمْ في العذابِ المُهينِ بسببِ كفرِهم، وذلكَ على جعلِ اللَّامِ في الكافرينَ للجِنسِ، ومَنْ حَمَلَها على العهدِ[4]؛ فيكونُ المرادُ بالكافرينَ اليَهودَ أَنفسَهم؛ فيأتي الإشعارُ بِعِليّةِ المَأخذِ أخصَّ وأَوضحَ مبالغةً في النِّكاية بهم.

بلاغَةُ المَجازِ العَقليِّ في الإسنادِ الوَصفي ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

إبـرازُ الـعلاقةِ بـين الـصِّـفـةِ والـمَـوصـوفِ المـقـتـضـيـةِ المـلابـسـةَ أو السَّببيَّةَ

جاءت كلمةُ ﴿مُّهِينٌ﴾ وصفًا مقيّدًا للعَذاب، على أنَّه مجازٌ عقليٌّ، والعَذَابُ في الحَقيقَةِ "لَا يَكُونُ مُهِينًا؛ لِأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ أَهَانَ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَأَتَّى إِلَّا فِيمَا يَعْقِلُ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ المُهِينُ لِلمُعَذَّبِينَ بِالعَذَابِ الْكَثِيرِ"[5]؛ فجاء وصفُ العذابِ بالمُهينِ ليدلَّ على ملابسةِ العَذابِ للإهانةِ وأَنّها غيرُ مُنْفَكّةٍ عنه، والعَلاقةُ في هذا المَجازِ هيَ المُجَاورةُ؛ لِأَنَّ الإهانةَ تحصُلُ مع العذابِ[6]، أو السّببيةُ[7]؛ لأَنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/370.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/370.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/491.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/491، وابن عجيبة، البحر المديد: 1/133.
(5) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/602.
(6) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/602.
(7) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/333، والهرري، حدائق الروح والريحان: 2/109.

عذابَ الكافرينَ سَببٌ للإهانةِ وهي متَرَتِّبةٌ عليه؛ لاقتضائِه خلودَهُم في النَّارِ لا ينتقلونَ مِن هَوانِ العذابِ إلى عزٍّ وكرامةٍ أَبَدًا، والصِّفةُ مقيِّدةٌ لا مُوضّحةٌ؛ لِأَنّ العذابَ قد يكونُ غيرَ مُهينٍ لصاحبِه، وهو ما كانَ تَطهيرًا وتمْحيصًا لِصاحبِه مِثل أَهلِ الكبائرِ[1].

مناسبةُ الصِّفةِ للموصوفِ في قولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

جـزاءُ الأفـعـالِ القَـبـيـحـةِ على ضدِّ مقصدِها

لـمّا كانَ حَسَدُ اليهودِ نابعًا من حُبّهم للرّياسةِ وادِّعاءِ الفَضلِ على النَّاسِ، واستكبارًا على عبادِ اللّه المُرسَلين وعلى الحَقّ طلبًا للعزِّ والكرامةِ، كان جزاؤُهم بالعذابِ المتَّصفِ بالمُهينِ هو الأنسَبَ؛ فقُوبلُوا بالعَذابِ المُذِلِّ المُخزي الّذي فيه احتقارُهم؛ على ضِدِّ ما طَلبُوا، وهو ما يَتناسبُ كذلكَ معَ الخَيبةِ الّتي حصَّلُوها مِنْ غضبِ اللّه المُذِلِّ المُخزي.

بلاغةُ التَّقديم والتَّأخير: في قولِه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

مَنْ يطلُبْ بكفرِه الكَرامةَ يُخَصَّ بالذّلِ والمَهانةِ

اقتضى تقديمُ المُسندِ على المُسندِ إليه الموصوفِ في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ اختصاصَ العذابِ المُهينِ بالكافرين[2]، الّذين اتَّصفوا بما ذُكِرَ في السِّياقِ؛ فكلٌّ من كفرَ طلبًا للجَاهِ والعِزِّ؛ فسَينالُ مهانةً من فوقِها ذُلٌّ وصَغارٌ.

بَراعَةُ التَّمثيلِ في الآية:

احتوَتِ الآيةُ على تمثيلٍ وتصويرٍ لحالِ اليهودِ، بِحَالِ مَنْ حَاوَلَ أن يشتغلَ بالتِّجَارَةِ لِيَرْبَحَ فكانت تجارتُه بِئْسَتِ التِّجارةُ؛ إِذْ أَصَابَهُ خُسْرَانٌ وذُلٌّ وهَوَانٌ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ يَقْبَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهِ أَنْ يَكُونَ اسْتِعَارَةً، وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ التَّمْثِيلِيَّةِ[3]

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/347.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/328.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/605.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»